الكتابات الكولونيالية حول التصوف الطرقي
مقاربة تحليلية لكتاب الطرق الدينية لدبون وكوبولاني

أ.ة زاوي خديجة
جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

مقدمة

الطرق الصوفية ومؤسستها الزاوية تناولتها أقلام وأعلام متعددة إن كانت متعلقة بالفاعلين بهذا الحقل أو الناقدين له، أو المفكرين والباحثين والمهتمين بحقل التصوف الطرقي بهدف العلم أو لأهداف أخرى مثل الكتابات الكولونيالية التي اخترنا منها نموذجا محاولين دراسته بمقاربة تحليلية لمضمونه والتي تفتح لنا الطريق لدراسة المنظومات المتعلقة بالتصوف وطرقه بإشكالية بعيدة عن النقل والإسناد.

وقد قسمنا هذه الدراسة الى قسمين اساسيين، القسم الاول تطرقنا فيه الى وصف عام لكتاب الطرق الدينية لدبون وكوبولاني مركزين على ما جاء في فصوله من معطيات متعددة، اما القسم الثاني فقمنا بمقاربة تحليلية لمضمون هدا الكتاب معتمدين على منهج تحليل المضمون بالإضافة الى خاتمة تناقش ابستيمولوجية هذا الصنف من الكتابات التي تزامنت مع الحقبة الاستعمارية.

فالتصوف المشرقي الذي أنتج فيما بعد تصوفا طرقيا كان سببا في انتشار التصوف في كامل المناطق الإسلامية، ففي البلدان المغاربية اجتاحها التصوف مع نهاية القرون الوسطى، حيث مثّل حدثا دينيا كبيرا وجديدا، أين انتشر التصوف في كامل المغرب الإسلامي[1]، وبعد ذلك أصبح التصوف الطرقي القاعدة الأساسية لكيان هذه البلدان وعاكسا لثقافتها وهويتها واركيولوجيتها التاريخية.

وفي هذه الدراسة سنتطرق إلى مرحلة زمنية ومنطقة جغرافية مغاربية محددة ظهرت فيها كتابات حول التصوف الطرقي بأعلام استعمارية ميزت القرن 19/م وبداية القرن 20/م، هي الجزائر.

ما شد انتباه الاستعمار الفرنسي بدخوله إلى الجزائر هو انتشار الطرق الصوفية فكانت تشكل أقاليم دينية وسياسية وعسكرية قاومت بشراسة الدخول الفرنسي مما جعل هذه الأخيرة تسخر العلوم الاجتماعية والأنتربولوجية لدراسة هذه الطرق بهدف التمكن منها، وقد تعددت الدراسات الكولونيالية حول التصوف الطرقي وممارساته في الجزائر، اخترنا منها كتاب لدبون وكوبولاني حول الطرق الصوفية في الجزائر الذي كتب مع نهاية القرن التاسع عشر.

اولا- التعريف بكتاب الطرق الدينية لدبون وكوبولاني[2].

كتاب الطرق الدينية الإسلامية لدبون وكوبولاني Coppolani، (Depont) جاء بعد دراسات وأعمال سبقته في هذا الميدان والتي اعتمد عليها المؤلفان في كتابهما هذا، حيث أشارا إلى الأعمال السابقة * التي تطرقت إلى موضوع التصوف والطرق الدينية مع الدخول الاستعماري للبلدان المغاربية منها الجزائر.فهذا الكتاب يحوي على عدة معطيات تاريخية وطقوسية وروحية ومادية وكذا على إحصائيات ميدانية حول الطرق الصوفية الجزائرية وعلاقتها بالطرق الإسلامية الأم الأخرى.

فصول الكتاب:

- يحتوي كتاب الطرق الدينية الإسلامية على مقدمة يشرح فيها المؤلفان أسباب اختيار الموضوع وكذلك على الأفكار الأساسية للكتاب.اما متن الكتاب فيتكون من 13 فصلا أهم ما جاء في هذه الفصول كما يلي:

ا- دراسة إثنوغرافية للمجتمع العربي قبل الإسلام وفي ظل الإسلام والرسالة المحمدية مع التركيز على :

- شخصية الرسول والقرآن وسنة والمدارس والمذاهب التي ظهرت بعد الإسلام.
- التصوف أصله، مدارسه، مذاهبه، وعلاقته بولادة الطرق الدينية.

ب- فصل عن الفتوحات الإسلامية وعن تداخل المعتقدات المحلية والمسيحية والإسلامية في إفريقيا، وكذلك عن ظهور المرابطين والموحدين والأولياء، ودورها في تطور المدرسة الصوفية وتكون الطرق الأم وفروعها.

ج- دراسة عن التنظيم المؤسسي للطرق الصوفية وقد تعمق الكاتبان كثيرا في هذا الفصل الذي احتوى على:

- إحصائيات عن الطرق الدينية في الجزائر وفي بلاد الإسلام ومدى تأثيرها.
-.دراسة عن النظام المالي للطرق من خلال المداخيل المختلفة للطرق الصوفية : الصدقة، الغفارة، الزيارة، الوقف... معتبرا أن النظام المالي والمداخيل الوافرة للطرق جعلتها تمثل دولة داخل دولة.
-.الدور السياسي للطرق في مختلف المراحل التاريخية في الجزائر، والحديث عن العلاقات العدائية وعن علاقات الصداقة التي كانت تربط بين الاستعمار الفرنسي والطرق الصوفية.

د- فصل عبارة عن استنتاجات لما جاء في الفصول التي سبقته.

ه- آخر فصل خصصه للطرق الأم أصولها، مبادئها وتفرعاتها حاولا من خلاله الكاتبان التفصيل في كل الطرق وفروعها خاصة المتواجدة في الجزائر أما التي لا تتواجد لها فروع في الجزائر فكان الحديث عنها مقتضبا مثل السهروردية والنقبشندية والخاذرية.

و- يتضمن الكتاب كذلك على صور لشخصيات دينية ولمدن ومساجد وزوايا وكذلك على طلاسم ورسومات إسلامية، إضافة إلى شجرة الطرق الصوفية.

ثانيا- المقاربة التحليلية للكتاب

إن الكتابات الكولونيالية بصفة عامة ومنها الخاصة بالتصوف الطرقي تبقى مرجعا للدراسات المختصة بهذا المجال إلا أن الحذر الابستيمي من المعطيات التي يحتويها شرطا أساسيا، انطلاقا من أن كل خطاب يحمل أهدافا وإيديولوجية ضمنية تأخذ أشكالا متعددة حسب الغاية المنشودة منها: تضخيم، انتقاص، حذف، تهميش، مدح، هجوم....أو شكلا آخر.

وفي هذا الصدد سنحاول تحليل هذا الكتاب بطرح التساؤلات التي يرتكز عليها تحليل المضمون على هذا الكتاب والمتمثلة في: من؟ ماذا يقول؟ لمن؟ بأية وسيلة؟ بأي تأثير؟.

أ - من؟ صاحب الكتاب هي الحكومة الفرنسية الاستعمارية متمثلة في باحثين عسكريين وإداريين ومترجمين ومنهم cappolani et depont. **

فقد جندت الحكومة الفرنسية الاستعمارية مثقفين عسكريين وإداريين لدراسة البنية الدينية والاجتماعية والسياسية للمجتمع المغاربي ألا وهي الطرق الدينية مستخدمة الأنثربولوجيا لفهم هذه الأنظمة المجتمعية لأهدافها الخاصة.

ب - ماذا يقول؟

حاول المؤلفان التطرق إلى كل الجوانب المتعلقة بالطرق الدينية الإسلامية بإتباع طريقة من العام إلى الخاص والانطلاقة من الماضي إلى الحاضر كما جاء في تعريف فصول الكتاب، التي استخلصنا منها عدة ملاحظات تضمنتها الفصول وهي كالآتي:

- المراجع المعتمدة في الجانب التاريخي والمتعلقة بالمجتمع العربي قبل الإسلام وبعد الإسلام، وبالرسول وبالقرآن والسنة، وبالمذاهب الإسلامية، كان عدد هذه المراجع قليل جدا.[3]

- أما المعلومات الخاصة بالطرق الدينية في الجزائر هي عبارة عن معطيات ميدانية مستقاة من واقعها الملموس مع الاستشهاد خاصة بآثار الطريقة السنوسية.[4]

- اهتم الكتاب بدراسة التنظيم الطرقي[5] والأعضاء المكونين لمؤسسة الطريقة بدرجة كبيرة حيث قام المؤلفان بجمع إحصائيات موضحة في جداول عن عدد الطرق والزوايا وأعضائها، ويشير الكتاب أن هذه الإحصائيات [6] لا تعكس العدد الحقيقي خاصة المتعلقة بعدد المريدين والإخوان حيث ركز المؤلفان كثيرا على هذه الفئة باعتبار أنها تمثل القوة والقاعدة الأساسية لكل طريقة وتعد بالتالي مصدر تخوف للحكومة الفرنسية الاستعمارية.

-اهتمام كبير أولته هذه الدراسة للنظام المالي [7] للطرق ولمداخيل الوافرة التي تجمعها الطرق الدينية عن طريق : الغفارة، الزيارة، الصدقة، الزردة، والوقف....الخ هذا الجانب المادي عزز كذلك من قوة الطرق الدينية.

- كذلك تطرق الكتاب إلى الدور السياسي[8] الذي لعبته الطرق الدينية والتي كانت تشكل دويلات داخل كل إقليم أو دولة.

- لاحظ الكاتبان من خلال هذه الدراسة أن المجتمعات المدروسة أي مجتمعات الطرقية تعيش في رسولية [9] مستمرة يمثلها بالطبع شيوخ الطرق والأولياء والشرفاء وأتباعهم.

- تضمن الكتاب كذلك مقارنة بين المسيحية والإسلام وتطورهما، وكذلك مقارنة بين الطرق الصوفية الإسلامية والمنظمات المسيحية، مستنتجا التشابه القائم بين الزاوية والدير[10].

بصفة عامة كل هذه الأفكار التي تضمنها الكتاب هي عاكسة للمزايا الدينية والمادية والبشرية والتنظيمية والتضامنية التي كانت تتمتع بها الطرق الدينية، وكذلك العاكسة لأهداف وأهمية هذه الدراسة الكولونيالية الموجهة بالدرجة الأولى إلى الحكومة الاستعمارية لاستثمارها في عملية التوسعها الاستعماري.

ج - لمــن؟

كما ذكرنا فهذه الدراسة ذات إيديولوجية وأبعاد استعمارية فهي موجهة إلى راعي هذه الدراسة وهي الحكومة الفرنسية الاستعمارية، حيث جاء هذا الكتاب مكمل للدراسات التي سبقته حول التصوف الطرقي كما ذكر في مقدمة الكتاب والتي جاء فيها أيضا: أن مباشرة بعد تسليم Jules CAMBON مقاليد حكم الجزائر أمر بجمع المعلومات[11]عن المناطق الصحراوية ذات الارتباط الديني بهدف مد السلطة عليها،مع الإشارة أن اسم الحاكم العام للجزائر هذا ذكر كثيرا في مقدمة الكتاب.

وما يبين كذلك أن هذه الدراسة هي لفائدة التوسع الاستعماري وحكومته التي استفادت كثيرا من معطيات ونتائج هذه الدراسات الكولونيالية، فكتاب الطرق الدينية لـ Coppolani et Depont وعلى إثر النتائج المتحصل عليها قدم برنامجا وتوصيات للحاكم العام، تمثلت في ضرورة ربط علاقات مع كامل الطرق الدينية وبدون تمييز طريقة عن أخرى لتمكين بسط الوصاية عليها ومنها على المجتمع ككل، وكذلك ستساعد فرنسا على مد علاقات جديدة خارج الجزائر بفعل ارتباطات الطرق الدينية الخارجية مما يسهل على فرنسا نشر أفكارها الحضارية[12] ، حسب الإيديولوجية الاستعمارية.

وهذا الكتاب هو أيضا موجها إلى الفرنسيين وحكومتهم، نستشف ذلك من اللغة المستخدمة عند الحديث عن الجزائر معتبرا أن الجزائر وما فيها فرنسية « عندنا في

الجزائر»[13] وهذا ما يطرح إشكالا في مدى موضوعية هذه الدراسات وفي نفس الوقت يبين مدى تمسكهم بالجزائر ورغبتهم في جمع كل معلومة تساعدهم على إحكام سلطتهم عليها،و هذا ما يطرح إشكاليات حول معطيات الدراسات الكولونيالية.
إذن صاحب الخطاب (من؟) هو نفسه مستقبله (لمن؟) في هذه المقاربة التحليلية لكتاب الطرق الدينية الإسلامية لدبون Depont وكوبولاني Coppolani والمتمثل في الحكومة الفرنسية الاستعمارية.

د - الوسيلــة؟

استخدم صاحب الخطاب (الحكومة الفرنسية الاستعمارية) وعن قصد الأنثربولوجيا لدراسة الطرق الدينية لأهمية هذا العلم في رصد وتحليل كل المعطيات المتعلقة بجماعة أو مجتمع محل الدراسة، خاصة وأنها واجهت مقاومة شديدة من كل الطرق الدينية في بداية الاستعمار الفرنسي للجزائر، لذلك لجأت الحكومة الاستعمارية إلى الأنثربولوجيا لمدها بالمعلومات الوافرة عن المجتمع وثقافته في المكان والزمان. والتصوف الطرقي كان يمثل ثقافة المجتمع وهويته في تلك المرحلة، فالأنثربولوجيا في بدايتها[14] كانت « تنطوي على إدراك ثقافة أجنبية وفهمها،ومن هنا ضرورة استيعاب الجماعة من داخلها وفهم سلوكاتها ومؤسساتها وقيمتها التي ينبغي إيجاد معنى لها ودلالة»[15].
ومن هنا تتجلى لنا أهمية الوسيلة التي استخدمتها الحكومة الفرنسية الاستعمارية والتي كانت نتائجها ناجعة في عملية التوغل والتوسع الاستعماري.

هـ - بأي تأثيــر؟

نقصد به في هذه الدراسة، نتائج الدراسات الكولونيالية التي ساعدت بفهمها للطبيعة الدينية والاجتماعية للمجتمعات المستعمرة على مد السلطة والقبضة الاستعمارية على الطرق الدينية والمجتمع ككل، انطلاقا من أن الأنثربولوجيا يتم فيها دراسة الظاهرة من كل جوانبها لارتباط الظواهر المجتمعية ببعضها البعض، وذلك بوصف حاضر المجتمع ونبش ماضيه من أثاره ومن ذاكرة فاعليه.
وقد تعرضت مقدمة هذا الكتاب إلى أن سبب نجاح التوغل الفرنسي وإضعاف الطرق الدينية التي واجهته وعارضته هو دراسة التنظيم الداخلي للطرق الذي كرست له العديد من الدراسات الكولونيالية المتعلقة بالطرق الدينية.[16]
وبالتالي اختيار الدراسات الأنثربولوجية كانت مناسبة للإستراتيجية الاستعمارية ونتائجها ظهرت على أرض الواقع حيث استطاعت الحكومة الفرنسية من ربط علاقات محاباة وولاء مع عصب المجتمع والمتمثل في الطرق ومنها الطرق التي قاومتها في بداية الاحتلال.

الكثير من الدول العظمى استعملت البحوث الأنثربولوجية في تحقيق أهدافها التوسعية، فهذه الدول توظف العلوم الإنسانية كذلك لغايات برغماتية في سيرورات وسياقات مختلفة، والآن تستخدم هذه العلوم في حرب جديدة وسائلها إعلامية هي الحرب النفسية.

الخاتمـــة

تبقى الكتابات الكولونيالية لها اهميتها التاريخية والابستيمولوجية لان ما يميزها انها ارتبطت وتزامنت مع عصر البحث عن المستعمرات، فالاستعمار الكلاسيكي لم يكن عسكريا محضا بقدر ما كانت الثقافة احد أهم أسلحته حيث استعان بالمثقفين والعلوم، وعلى رأسها الانثروبولوجيا التي ساهمت في فهم ثقافة المجتمعات المستهدفة، ومنها الثقافة الدينية المتمثلة في الطرق الدينية التي طبعت تلك المرحلة. الإشكال ليس في الانثروبولوجيا أو في أي علم أخر، فالانثروبولوجيا في بدايتها كعلم موضوعي كانت أهدافها " بريئة للوهلة الأولى...لكن هذه البراءة لم تدم طويلا إذ تحول هذا العلم وبسرعة إلى أداة في يد السلطة، أو السلطات الحاكمة في البلدان الأوروبية التي كانت تشهد مع توسع البحث في الانثروبولوجيا توسعا جغرافيا..."[17] هذا ما يطرح إشكالا ابستيمولوجيا حول أغراض العلوم ومدى حيادها العلمي، في العلوم الانسانية وحتى في العلوم البحثة التي أصبحت أداة تدمير للإنسان والإنسانية في بعض مجالاتها البحثية، والسؤال يبقى مطروح ما هد ف علم هذا الإنسان من العلم وما هدف العلم من الإنسان في علاقته مع أخيه الإنسان؟.

الهوامش :

[1]- Atallah DHINA ،les Etats de l'occident musulman aux XIIIe، XIVe، XV، siècles ، institutions gouvernementales ENAL، Alger 1984 p301.

[2]- Octave Depont، Xavier Coppolani، les confrèries religieuses musulmanes، Adolphe Jourdan ،Alger 1897.

[*] Homoteau، Brosselard. M،DUVEYRIER، NEY Napoléon ،ARNAUD، colas، MAYER Ernest…..

· دبون وكوبولاني إداريين متعاقدين بالمصلحة الخاصة بقضايا الأهالي وبالمصلحة العسكرية للحكومة العامة وحتى في الصفحة الأولى لكتابهما الطرق الدينية عنوان بحجم كبير كتب تحت العنوان إسم الحاكم العام للجزائر Jules CAMBON الذي نشر الكتاب ثم تلاه التعريف بالمؤلفين.

[3] - المراجع المعتمدة في الجانب التاريخي للعرب وللإسلام وللمذاهب والتصوف لا يتعدى 14 مرجعا من بينها كتاب ابن خلدون مترجم إلى اللغة الفرنسية أنظر تهميش الفصول لأنه لا توجد قائمة المراجع في الكتاب.

4 -Duveyrier، la confrérie de la Senoussia en l'an 1300 de l'Heg ،société géographie de Paris, 1883 & Colas livre mentionnant les autorités sur lesquelles s'appuient cheikh Senoussi dans le soufisme ،Archives du gouvernement général.

[5] -Octave Depont، Xavier Coppolani، les confrèries religieuses musulmanes، p193-210.

6 - أنظر المرجع السابق من ص 211 إلى ص 223، من ص 596 إلى ص 571 تقريبا نضف هذا الكتاب يحوي على أرقام وإحصائيات.

7 - نفس المرجع ص 225-.256

8 - نفس المرجع ص 257-.277

9 - نفس المرجع ص20

10 - المقارنة موجودة في الصفحات السابقة الذكر ضمن الحديث عن التنظيم وعن النظام المالي....مثل ص.247

11 - المرجع السابق ص.24

12- نفس المرجع ص 25-.27

13- نفس المرجع ص.9

14- الأنثربولوجيا في نهاية القرن 19 م وبداية القرن 20 م كانت غربية تدرس المجتمعات الأخرى وصفت بأنها غير متحضرة فكانت تصب تقصيها « على جماعة أو مجتمع ذات ثقافة مختلفة وعقليات وممارسات مختلفة عن ثقافة الباحث وعقلية وممارساته». جاك لومبار مدخل إلى الإثنولوجيا،ترجمة حسن قبسي،المركز الثقافي العربي،بيروت 1997ص .22

15 - المرجع نفسه ص23.

أنظر الصور الموجودة في الكتاب التي تصف الواقع المدروس شخصيات،مساجد،زوايا،طلاسم،شهادات.

Octave Depont، Xavier Coppolani، les confrèries religieuses musulmanes، p4،14،22،26،32،97،140،150،236……

16- المرجع نفسه ص20.

17- جيرار لكلرك، الانثروبولوجيا والاستعمار.ترجمة جورج كتورة،ط02 المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1990 ص06.